التركى حامل الرأس

يقبع فى أحد الغرف، معروضاً وقد ارتدى زيه الحربى العتيد، الفارس من القرون البعيدة الماضية زيه هو ما لفت نظرى أول الامر، تخيلته وقد دبت فيه الروح، يتجول وسط القلعة وفى طرف رمحه الظافرشارة تدل على فرقته الحربية، ما معنى البطاقة الدالة على عصرهُ، هو لم يكن حقيقياً فى يوم من الأيام ، تمثال شمعى قصد به إعمال خيال الزوار لكنه رغم ذلك، كان به شىء حقيقيّ، تلك اليد القابضة على عنق الرمح، تلك النظرة الشرسة الفتية، ذلك الصدر المنفوخ بالهواء تحيط به دوائر الحديد وساعده المتين وقد تعلق الدرع بقصبته، أدركت ان شاكلته تلك لم تتكون فى عقل النحات من الكتب وحسب، لابد لخيال من قضمة صدق، اين تراه رأى ذلك.. فى اليقظة ورحل العقل خلف سرد الكلمات ووصف حكاء القلعه لهيئة فرسان المنصور الأشرف، فى كابوس الخوف الجاثم على قلبه حين تفوه بعبارات الشتم، للمجالس على كرسى ولايه الصدر الأعظم وقناديل الدرك تدكّ الأبواب، بحثاً عن هارب من عدل البيك ـ: من نحت التمثال الواقف بالبهو العثمانى يمثل حرس السلطان أو الوالي؟ ليظهر الصوت المتسائل والمجاوب ـ: تسأل عن فنان

التمثال!! هى أعمال بلا أسماء صانعيها، الواقع أنها تعود لأكثر من قرن، حين اهتمت الدولة بتزيين القاعات وإحياء اماكن التاريخ، كان يردد محفوظات الهُ تسجيل كالتمثال، لن يزيد عن عموميات الشكل قطره علم.. هوالأخر احفوره، خازن اسرار التاريخ، انسحبت بهدوء من جلبه شروحه وتمثلت خطوات التراجع حتى انتهى بى البهو إلى زنزانه، كبل الحديد ساق تمثال المحكوم عليه، كانت قضيته أن شرع فى فك زمام الخيل المجلوبة لفرسان الجبل، بقصد السرقة !! كان يحاول ان يسترد ما سلبه النهابة فى غارتهم الأخيرة على أولاد الناس، وربما كان يفر من قطعان الجلبان وما أكثرهم فى ذلك العصر.. وكل عصر الزمن لم يخفى خدوش التمثال وآثار التعذيب، أخاديد طويلة كالحة على الفخذ والوجه والصدر أيعقل حقاً أن يعى المثال رنة الألم فى مكان كهذا، ويعود بإحساسه لدار فنى سكانها بكل جبروتهم وطغيانهم وضحاياهم! قدرة العقل غير المفسرة على إدراك ما لا يدركه الوعي، وكأنه رأى تأثرى بالمشهد، فأسرع يقول: لا تصدق ، إنْ هو الا خيال فنان أراد التأثير على الزائرين، حسناً، اجدك أميل إلى تصديق ما تراهُ، تجاهل، انت هنا للفسحة تزور مكاناً وترحل بخيالك فى الماضى لترى كيف كانوا يعيشون، انظر إلى طراز العمارة ونافورة القاعه وكرسى العرش والدروع العملاقة...

كانت زنزانة رطبة، اصطف عشرات المعتقلين على الجانبين، أخرجوهم من الزنازين ليوقفوهم فى الممر، حيث تشاهدهم بعثه

الموفوضية، السياسه تلعب دورها فى أحيان، فأنا أول سورى عضو فى منظمة دولية تسمح لها سلطات الاحتلال الصهيونية بزيارة المعتقلين منذ انتفاضة الحجارة.. دائرة من الأضواء الكاشفة، ترصد تحركاتى ضمن الوفد، شعور قاتل بالرقابة، صدحت لهجتى الشامية فى الأروقة تحت الأرض، أصررت على الحديث بالعربية، وشكلت فى اللهجات مرة مصرى ومرة عراقى (عراكى) ومرة خليجى نكايه فى الجنرال عمنشتاخ الذى اصر أن يتحدث افراد المفوضية بالأنجليزية قال لى إيصارى كمال بلهجه أبناء الأسكندرونه ـ: كف يا عبد القادر .. لقد تعبنا كثيراً جداً لنحصل على هذا الأذن بتفقد السجناء ...

هاكذا أنتم يا عرب لا تفكرون فى غير الاستفزاز، لم أجبه كانت حماستى وصوتى قد أشعلت فى صدورهم ومضة انتفاضة المقهور، تحدى الظالم المستبد، شعرت أن جموع الحرس قد بدأوا فى تشديد قبضاتهم على أسلحتهم، ارتفعت الأصوات، ولم تكن أصوات شكوى، لم تكن لحظة ضعف واستجداء.. جئناكم لنسمع شكواكم، هل يعذبونكم، هل .. كانوا يهتفون بأقوى قدرة على التحدى، أصبح إدخالهم الزنانزين مرة أخرى فى غاية البشاعة ... صورنا ذلك وانتزعوا منا الأقلام والساعات والهواتف، انتزعونا من وسطهم من هتافات الثوره واللعنات على إسرئيل ـ: ماذا تريدون.. ألا أحدثهم الا من خلال مترجم..؟ أصر رئيس البعثه على ألا اذكر ذلك فى تقريرى فى مقابل ألا يوجه لى اللوم .. وعلمت ان العضو

التركى إيصارى قد تمسك بإتمام الزياره دون استبعادى من الفريق وهدد الإسرائيلين بالعديد من العواقب الأعلامية، حملت عدداً من الجرائد والمجلات العربية لاعطائها للمعتقلين، كنت أعلم إنه بانتهاء الزيارة سوف يجمعونها، كنت اعلم ايضاً انها سوف تقرأ وتحفظ فى ذاكرة أولُ متلقى وسيعلمون الأن ما تغير فى الدنيا فقد مات الملك وجاء السفاح إلى السلطة وهبط الماغول إلى بغداد.. وأطلّ من داخل ثنايا الأسوار عدة أطفال ـ بين السنتين والخمسة ـ وراح التركى يسأل مشرفة المعتقلات عن كيف تحتمل سجن رضيعة..؟؟ كان يؤدى عمله بمهنية، أحسده، ظلت صورة إطلالات الأوجه من خلف الحواجز والمتاريس وقبضات الصهاينة تزورنى فى كل الأوقات مثلها مثل أوجه تماثيل الشمع، الفرق فقط أن أماكنهم الآن لم تصبح تاريخية بعد، تكرار للماضى الحاضر فى كل الأوقات الصعبة، تلك المرأة الحامل حملتنى رساله لذويها فى (رام الله) لم أعرف كيف أوصلها، فقد رفضت السلطات المحتلة السماح لنا بتخطى الأرض إلى الضفة، وقال لى التركى ألا أصر وأن المهم هو الحصول على قوائم بأسماء المعتقلين الذين فى حوزة إسرائيل والتى ترفض إعطاءنا إياها كامله، أجبته ساخطاً :{كأن الجدل غاية وليس إيجاد الحلول، اسمع منى (ولاك) سأحل مشكله القوائم الناقصة مع الاحتلال وأنت تحمل الرسالة لأهل السيدة الحامل}.، لم يكن من العسيرعلى الوصول إلى القبوة تحت القلعة؟ هنا.. كان يمارس استنطاق المملوك العاصى لأمر

الوالى بأمر وخبر المتأمرين على حكمه، كانت رائحة المكان مقبولة بعطنها... راح يشرح لى كيف أن مياه الأبار كانت تغمر جدران الغرف الضيقة، وكان الواحد يكبل من ذراعيه ويعلق فى السقف لمدة، حتى يُنهك جسده وتنهش المياه الحامضة نصفه السفلى، عندها .. وصمت المرشد السياحى فقد كان كلانا يعرف تتمة كلام السادة..، مازال الحارس الشمعى يقلب فى وجهى نظره، أحسدهُ، الآن هو جزءٌ من ديكور اللحظة، لا يقهر أحداً لينال مال السلطان ويأمن غضبهُ، تخطى التركى الأعراف الدبلوماسية فكونه موظف دولى لا يعطيه الحق فى كسر بروتوكولات اللعبة لكنه أفلح وجاء الدور عليَّ، لم أهدأ حتى حصلت بعثتنا على قوائم أسماء المعتقلين كاملة، أسماء نساء ورجال وأطفال ـ أكثر من خمسين ألفاً منذ التسعين وحتى الآن – كانت ترفض لتعذب عائلاتهم بهم، ليظلوا جاهلين بمصير المعتقلين، كان رئيس البعثة أوروبى حذر جداً . لم يتعود على سخونة أجوائنا ودمائنا، نعم !! عيب فى التركيبة، تركته يتحادث فى الخارجية المصرية وجامعة الدول العربية، عن إنجازات الزيارة وكيف انتهت ويبرهن للعرب أنه يمكن أخذ الحق بالحرفة، مشوار الصباح القصير، أفضى بى إلى جامع السلطان حسن، أخبرنى حين رأيته أنه آت لتوه من عمان قصد الفندق وعرف أين أقضى فترة الإجازة الإجبارية. ـ : هل وصل المكتوب لأهل المعتقله؟ ـ : لا.. حتى تخبرنى كيف انتزعت قوائم بالأسماء الكاملة فالأمر بينك وبين رئيس المفوضية لا يعلمه باقى الأفراد..؟ همست

ـ: هددت مندوب اللجنة الدولية أنى فى المؤتمر الصحفى سوف أعلن ان الأسماء المفقودة والمغفلة وجدت أصحابها مقتولين فى سجون الاحتلال وأن لدى قائمة بأسماء القتلة فرداً فرداً عسكريين وسياسيين فسلمونا أسماءالمعتقلين وحالاتهم وأين هم وتحققنا من ذلك. صفق إيصارى بيده: عمل رائع.. ـ: وأنت..؟؟ ـ: لا، لا طائل قلت لك من قبل إنها حالات الحرب فالعربيدة كانت ترقص عاريه امام هيرود رشق رصاصها رجال الأسره وأحرق القرية وجزت رأس الأب، أخبرها يا عبد القادر .. إن استطعت .